سيميائية الفضاء في رواية الصحراء عند إبراهيم الكوني

أ. بولفعة خليفة
أستاذ مساعد (أ)
جامعة محمد الصديق بن يحي- جيجل

تعتبر السيميائيات من الميادين الواسعة جدا، مما جعلها منهجا إجرائيا يمتلك روافد معرفية في مختلف العلوم الإنسانية،ابتداء من الفلسفة واللسانيات،والأنثروبولوجيا والتاريخ وعلم النفس إلى علم الاجتماع، وصولا إلى الخطاب الأدبي موضوعها الأثير. وهذا ما مكنها من الانفتاح على سواها،مماوجعلها تطور أدواتها المعرفية باستمرار. بالإضافة إلى أنها تهتم بتجليات المعنى المدرك عبر الأشكال اللغوية، والخطابات المعبرة عنها، فتجعلها أكثر تواصلية وتضمن لها قراءة مستمرة غير منتهية. ومن هنا فإن موضوع السيميائيات هو المعنى(1)

يرى المختصون في القراءة السيميائية أنها نموذج قرائي لتحليل النصوص السردية وغيرها، باعتبارها فلسفة تبحث في المعنى وطرق إنتاجه وتجلياته في ثنايا النص وزواياه المعتمة. غير أن هذا لا يعني أنها تروم الوصول إلى معان محددة في النص، من شأنها إنهاء النص وقتله. وبالتالي هي بحث لتجلي حالات مرئية تتخفى في أشكال ونماذج مجردة لا يمكن أن تحضر في الذهن إلا من خلال نسخ تخبر عن تحققها دون أن تساعدنا على إدراك جوهرها. فهذا الجوهر شأنه في ذلك شأن "الشيء في ذاته" عند كانط، يستعصي على الضبط والإدراك.إن وصفه يقف عند حدود العناصر المكونة له،و هي العناصر التي تشكل التجليات المتعددة، أو ما ندركه من خلال تحقق خاص(2)

ومن ثمة فإن منظور القراءة السيميائية للنص السردي ينطلق من كونه عملية تلفظية تمثل وحدة دلالية(3)

وعلى هذا الأساس جاءت قراءتنا للفضاء في رواية الصحراء من منظور سيميائي، حيث يصبح هذا الفضاء أيقونة ذات محمولات رمزية لمقولات ثقافية وحضارية وأنثروبولوجية وإيديولوجية. وعليه فهو فضاء متخيل لا علاقة له بالفضاء الصحراوي الموجود في الواقع.

وليست الصحراء هنا إلا استعارة لمقولات كبرى تبشر بمجتمع أكثر حرية وإنسانية.وعلى هذا الأساس يكون هذا الفضاء، وما يتميز به من تقشف وزهد، مناقضا لفضاء المدينة التي تعتبرها نظرية الأدب أم الرواية.

ومن هنا فإن الفضاء الصحراوي، في هذا المنظور لا يعدو أن يكون فضاء لغويا في رواية الصحراء عند إبراهيم الكوني، وليس فضاء متعينا في الواقع، بمحمولات رمزية وثقافية وإيديولوجية، حيث تتجاوز علاقة كائناتها السردية، العلاقة بمعناها الاقتصادي والحيوي، إلى علاقة أنطولوجية معقدة. وفي مقابل ذلك، تتحول كتابة السرد عند هذا المؤلف، إلى وضرورة ميتافيزيقية وحاجة تاريخية.

الفضاء الصحراوي أيقونة سردية

يوظف الكوني الفضاء الصحراوي باعتباره أيقونة سردية ترمز إلى مشهدين متناقضين، الأول كونه نموذج الفطرة الإنسانية الأولى رمز الحرية والانطلاق، في عالم يرفض الحدود والتقسيم، والثاني كونه فضاء مقدسا تم تدنيسه من طرف الإنسان، وأصبح عرضة للإقصاء والتهميش، عن طريق طمس معالمه وحضارته وتراثه. وتتحول أسئلة السرد المثارة في النص إلى بديل لمعرفة التاريخ الفعلي الذي "غيبته الترهات والمؤسسات الرسمية"، وجسرا للحوار لتفرض وجودها بصورة واضحة في المشهد الإبداعي العالمي.

يعترف الروائي أن الكتابة عن الصحراء، تبدو كتابة عن عدم، كتابة عن مكان هاجر المكان. في حين الكتابة على المدينة هي عكس ذلك تماما، لأن فضاءها يتيح مشاهد جاهزة وعلاقات معقدة ، تزيد من حيوية الأحداث وإيقاعيتها مما يحفز على الإبداع والكتابة، والتبئير والرؤية. ومع ذلك تبقى الصحراء، حسَب رأيه، دائما مصدرا للخلاص والإلهام والإبداع. فهي مهبط الوحي والكتب السماوية، وملاذ النساك والرهبان والمتصوفة، ومن ثمة فهو:" المكان الوحيد الذي يستطيع فيه الكائن الحي أن يذهب ليشاهد الأبدية، يذهب ليرى العدم بعينيه، ثم يعود إلى الوراء وهو ما زال على قيد الحياة"..و تبقى العالم الوحيد الذي يرفض الحدود والتقسيم. كما أنها كانت في يوم من الأيام جزءً مدهشا من السماء، تعايش فيها الجن والإنس والودان والضب والطلح في فردوس تجري في وديانه سيول خالدة.

كانت الصحراء ولا زالت جزءً من المكونات الجمالية في الذائقة العربية التي اهتم بها مخيال الأدب العربي، واستلهم منها مرجعيات جمالية ودلالية أثرت في خصوصيته الجمالية والرمزية التي تتجسد في صورته الفنية. مما يفتح المجال واسعا لتقاطع الواقع بالخيال والتاريخ بالأسطورة " وأصبح لها من الدلالات والمعاني والرموز التي لا انفصال فيها بين التاريخ والأسطورة أو بين الحقيقة والخيال (4)

وأصبحت من الموضوعات المحببة في الأعمال الأدبية، يستوي في ذلك الأدب العربي والأدب الغربي "إذ ظلت الصحراء طيلة هذه القرون الماضية تثير خيال الشعراء والأدباء والفنانين وتستهوي أفئدة كثير من الرحالة والمغامرين والباحثين، كما كانت مسرحا للبطولة والفروسية التي سجلتها السير الشعبية والملاحم(5).

فضاء الرؤى السماوية

"لقد كانت السماء دوما وطن الرؤى السماوية"(6) ويتبين هذا من خلال تعرية الروائي المستمرة لحفريات الصحراء للكشف عن أسرارها وألغازها التي ظلت دفينة آلاف السنين. الجميع يعلم أن الصحراء هي التي أنجبت قادة البشرية العظام الذين حرروها من الجور والعبودية. وبرغم جوها القاسي، كانت ولا زالت مرتعا للأحرار والنساك والمتصوفة والشعراء والفنانين، لا لشيء إلا لأنها فضاء للحرية تتعرى فيه الروح لتتحرر من قفص البدن، وتنطلق في عالم النور وتسبح مع الملائكة. فكل شيء فيها يُسبّح برب الكون ويتّحد معها إلى درجة التماهي وعدم الانفصال ، تتداخل الأشكال وتمتزج الروائح والألوان،فكأن المكان لا مكان والزمان لا زمان، وتتحول الريح وحركة الكثبان والنجوم والقمر، وشروق الشمس وغروبها ، والأرض الحمراء الحبلى بالترفاس الذي تتبين علامته حيث يفوح الرتم ويتضوع الهواء بأريج الزهور، ويتحول الكل إلى سيمفونية كونية تعزف لحنا واحدا هو الحرية والبحث عن النور :"تنفس الابن بعمق حتى شعر بالدوار. أغمض عينيه ليستعيد الغزال ويحفظه للأبد.ولكن الشبح المدهش فر من الخيال كما فر من الصحراء....كل الأشياء التي تولد في الأرض تسعى دائما لأن تلتحق بالسماء.الإنسان أيضا تلده الأرض ويسعى للالتحاق بالسماوات. كل الأشياء الأرضية. تظن أن الأصل في السماء، في النور(7).

جوهرة تلدها الأرض...الترفاسة ثمرة سرية. الترفاسة مثل الجن، تعتزل وتختلي بنفسها مثل الكنز. لا يعثر على الكنز إلا المعتزلة. واصل أنت البحث في السهل، وسأجرب أنا البحث في المنحدرات.

تطلع من الأرض مثلها مثل الجن. ستجد تشققا في لحمة الأرض. قلاع من الطين. تلك إشارة الكنز .

انحنى الولد فوق كوم صغير من الطين في حاشية المنحدر. تشققت الأرض الحمراء وارتفع فوق الأرض نتوء دائري غامض، تخللته شقوق وثغرات،كما حمل على ظهره، في تمرده على سلطة الأرض،حجارة وحبيبات حصى. حاولت الأرض أن تسترد جنينها فلاحقت الثمرة الخفية بأكداس التراب والطين، ولكن الحياة انتصرت في الكائن الخفي فمزق القماط الأرضي في القمة ورفع رأسه ليرى الضوء. تبدى الرأس في الجزء العلوي فكانت الحية في الانتظار. سبقت الإنسان مرة أخرى وقضمت، بالناب المسموم. الجزء العلوي من الرأس لتمنعه من النور، إلى السماء، وفرت بالعصارة، بالثمرة، بالكنز، بالخلود.

وعندما تأملها ومسح الأثر بنعله خفية عن الغبن قال بخشوع:

- ألا ترى أنها تشبه"إدبني" قبور أسلاف الطوارق المستديرة ينام عليها الطوارق فتنبئهم بالمستقبل وتخبرهم بأحوال المسافرين،حسب رواية هيرودوت(8)

لا يختلف اثنان حول أهمية الفضاء الصحراوي عند إبراهيم الكوني، نظرا لما يحمله دلالات متنوعة، تتضح معالمها بمجرد خوض المؤلف في سرد الصحراء بهمهمتها ووشوشتها الغامضتين: "نستطيع أن نلبي نداء الحنين بالرجوع إلى مكان هجرناه"(9). فالمكان بالنسبة إليه دافع الحنين الأول وهو ما يجعله يدعو إلى الاحتفاء به :"لابد أن نحتفي بالصحراء، لأنها الركن والمكان الأكثر نبلا في مملكة الطبيعة. ويلجأ الكوني إلى أسطرة الفضاء:"فضأ العالم وجرده من الحياة كي يتفرغ لخلق المخلوق فصنع الصحراء الكبرى، خلق المخلوق وراقته سكينة الصحراء فباركها وخلق في قلبها واحة واو وتنفس الصعداء"(10)

يعتبر الفضاء الروائي من الموضوعات التي لم تحظ بدراسات كثيرة مقارنة بالعناصر السردية الأخرى بالرغم من أهميته البالغة في بنية السرد وحركته، إذ تتعلق فاعلية العناصر

انطلاقا من علاقته بها. ومن ثمة يختلف عن الفضاء الواقعي باعتباره فضاء خياليا بامتياز.وبالتالي فمسافته مسافة ورقية، يتم نقلها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل بفضل المشاركة التفاعلية للقارئ ويصبح هذا الفضاء التخييلي فضاء كتابيا بالرغم من إحالته على مرجعية خارجية. يمكن إدراك هذه الخاصية من خلال اشتغال الآلة الوصفية التي توضح علاقة الفضاء التلازمية ببقية العناصر المكونة للعالم السردي بسياقاته المتنوعة المحملة بمختلف القيم والثنائيات والمتضادات المبرزة لحقيقة المسار السردي وفاعليته، عبر إستراتيجية خاضعة للمنظور السردي.

ومن ثمة تتميز رؤية الكوني للفضاء الصحراوي، برؤية يتماهى فيها الواقعي والتخييلي، المجرد والملموس. وهي رؤية لا تشمل الظواهر الطبيعة فقط بل تتعدى إلى الكائنات أيضا بحيث يقوم الراوي بترتيب أجناس الكائنات إلى جلي وخفي. وهي رؤية مصدرها عالم المتصوفة "الظاهر والباطن". وتحولت هذه المسحة الصوفية إلى جمالية خاصة تنضح بها شعريته النصية. ومن ثمة فإن منظوره السردي للصحراء، لا يشذ عن هذه القاعدة المتمثلة في الثنائيات الضدية، فهي نعيم وجحيم، حياة وموت. ويؤكد هذا التوصيف إلحاحه الدائم على أن فضاءه الصحراوي فضاءٌ إبداعي يمثل واقعا استعاريا يُحمّله رؤيته الفلسفية والإيديولوجية:"صحرائي وطن، صحرائي استعارة". كما يحمل دلالة أخرى تتمثل في كونه فضاءً مثاليا في طريقه للتدهور للاندثار بسبب انتهاكات الإنسان وجبروته. بالإضافة إلى كونه فضاء انطولوجيا مقدسا وهبه الله للإنسان لخلافته في هذه الأرض ليتصل بملكوته السماوي: "في البدء كانت الصحراء أرضا ككل أرض. في البدء كانت الصحراء بستانا ككل مكان في الأرض. كانت بستانا لا يختلف كثيرا عن البستان المجاور الذي أطلقت عليه أجيال الخلق اسم" الفردوس". ولكن الله رأى أن يتخذ لنفسه وطنا على الأرض المجاورة لأرض مخلوقه المدلل، فسخر الشمس دهرا، وسلط على الرقعة ريح القبلي دهرا آخر، فاندثر الشجر، وزال النبت، وتبخرت الينابيع، وتعرت الأرض، وتولد فراغ هائل صار له جسدا، وهب على الفراغ ريح فصار نفسه، وتوجع الصمت بأنين أصبح له شجنا، وغرق كل شيء في السكون العظيم، فصار له السكون إيماء،لغة، أغنية.(11)"

ولكن الصحراء لا ترحم، ولا تتوانى في تسليط أقصى العقوبات مع من يخترق سننها وينتهك ناموسها، و وتنفذ أحكامها بأقصى درجة ممكنة. ونتيجة هذا التمرد لأقسى العقاب بعد أن كان لا يعرف العطش والوحدة وريح القبلي الجلاد الأبدي، فكان عليه أن يواجه أهوال الصحراء بتناقضاتها المختلفة، المتمثلة في السيول المدمرة والعطش المهلك وأصبح يجاهد في مواجهتها لتطهير نفسه: "ولكن الصحراء خليفة الله في الأرض تنفذ تعاليمه وحكمه بحذافير قاسية.. هذه الصحراء التي تجود بالمطر وتجعل شجر البطوم يزهر، وتتقيأ الغزلان والأرانب والبقر الوحشي تستطيع أن تزفر صهدا أو تعصف ريحا أو تُصلى نارا موقدة لا مهرب منها. وأسوء ما تستطيع أن تفعله الصحراء هو أن تبخل بالماء.. أن تشح بالماء !"(12)

الفردوس المفقود

ودلالة الصحراء في الأدب توحي ضمنيا، بالفردوس المفقود، والخطيئة والتيه، وخروج آدم من الجنة، ولذلك فإن :" الحديث عن الصحراء مثل الحديث عن الفردوس المفقود التي تثيرها صورة آدم، والفردوس الموعود بالنسبة لي، يرتبط بالصحراء، فما هي الصحراء؟ في سفر الخروج أوحى الله لموسى أن يقول لفرعون:"حرر شعبي ليعبدني في الصحراء" .فالصحراء إذن فضاء مقدس للعبادة، ولذا كان على الشعب المختار أن يَعْبُر صحراء سيناء ليتطهر من الشرك قبل أن يدخل الأرض، ولذلك فإن الصحراء مكان للتطهر، أو النفي، وحسب المصطلح القرآني عبادة وتطهر(13)، ولكنها مكان للتحرر أيضا، هذه هي الصحراء بالنسبة لي... وهي أيضا ترتبط بالأسطورة التي تعتبر روح الصحراء ، فصحراء بدون أساطير عدم مطلق، غير أن الأسطورة ليست مجرد ركام رمزي فهي تختزن التاريخ الثقافي الصحراوي الممتد آلاف السنين إذ هنا ولدت ثقافة ثرية جدا"(14).

ولذا فإن توظيفها بهذه الرؤية يتيح للقارئ الاستمتاع بشعرية خاصة تتمثل في سلسلة من الثنائيات المتضادة الحاملة لمجموعة من القيم حسب تعبير لوتمانوباشلار. وينطبق هذا تماما مع الشعرية العربية القائمة أساسا على قيم شعرية رسختها الفطرة والذوق الفني، باعتبار الشعر جزءً من بنية الوعي ورافدا رئيسيا من روافد التفكير، وباعثا لافتا من بواعث الحضور الوجداني، نتج عنه ممارسة قيم وتقاليد وأعراف موضوعية وفنية(15).

وأبرز ما يميز الصحراء، عند العامة،ظاهرة الفقر والجدب والقحط، الرهبة والخوف والتيه والضياع وارتياد المجهول، الإيهام والمخادعة الناتجة عن ظاهرة السراب، البداوة والتخلف، المغامرة وفقد الاتجاه، الموت والضياع.وفي مقابل ذلك، الاتساع والرحابة المثيرة للسكينة والهدوء والتأمل. وهو ما يجعل من هذه الظواهر ترتبط باتساع كوني آخر أكثر رحابة، يمكن من تجاوز التخوم الأرضية الواقعية والولوج إلى تخوم عوالم أخرى أكثر إشراقا، ينتج عنها دلالات أخرى تتعلق بالباطن والظاهر، الواقعية والتقشف، والبساطة والإرادة الصلبة، القابلية للتحول والحركة، الأمر الذي يؤديإلى اكتساب جمالية شاملة تتعلق بالرحابة المشهدية والتدفق الضوئي(16)

كما ارتبطت الصحراء بقيم ومرجعيات مقدسة، واعتبرت مكانا خارج المكان لأن اتساعها المهول، جعل اللاشعور الجمعي يرتبط بالتيه والضياع "يمكن اعتبارها وجودا خارج المكان، أو اللامكان، لأن الارتباط بها غير ممكن، وبهذا المعنى لن تكون إلا عتبة أو عبورا"(17).

والصحراء بتنويعاتها المكانية ورحابة فضائها المتناقض، تمكن المبدع الحقيقي من استيعاب أبعادها المختلفة،أين يعيد تركيبها في صورة أخرى تتميز بنوعية من الحميمية بين الذات والمكان، بعد أن تتحول هذه المتضادات إلى انسجام واتساق نتيجة التصور الحاصل عن فسيفسائية المكان التي تكون نواة الفضاء العام في رؤية المبدع التي ترى في هذا التنوع "علامة على كل مقروء وعلى كل حالة من حالات الاتصال"(18). وبذلك تتحول هذه العلاقة إلى ما يشبه المناجاة بين الذات والموضوع، وتتحقق عملية الاستجابة التواصلية، وتتفتق عنها أفكار تشبه أحلام اليقظة، وتصل أحيانا إلى حالة من الانشداه أو الوجد يتم ترجمتها عبر العلامات اللغوية بصورة أو بأخرى لأنه "إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"(19).

ويبرز هذا جليا يشتد الحنين إلى الوطن المأمول أو "الفردوس المفقود" أو ذكر أهوال المنفى والشتات والبحث عن الحقيقة أو الحرية كما يتصورها الروائي. ويمكّن هذا التواصل بين الذات والموضوع من اختراق الواقع وتجاوزه، مما يجعل الصورة الواقعية تُدمغ في الصورة الجوانية.

ارتباط الفضاء الصحراوي بالاغتراب والحنين

تعالق الفضاء الصحراوي بموضوعة الفقد والحنين والرحيل والغربة والمنفى والشتات أو "الدياسبورا" Diaspora التي يوظفها الكوني هنا بالمعنى التوراتي، الذي يثير معان كثيرة منها العودة، وأرض الميعاد والعودة إلى الوطن، أو الأرض المقدسة. وذلك باعتبار الصحراء، أرض الميعاد، نواة دلالية تستقطب حولها معالم تاريخية وأنثروبولوجية، وتتحول على مستوى النص إلى علامات لغوية، وعلى مستوى المتلقي إلى تأملات أنطولوجية .

وتتحول رمال الصحراء وكثبانها ونتوءاتها ووديانها وأحجارها وصخورها وكائناتها المتنوعة وجزئياتها وتفاصيلها، إلى معادلات موضوعية تتحول على مستوى اللغة، إلى معان وموضوعات قارة في روايات الكوني مثل المنفى والبحث عن الحرية، وبعث تراث الأسلاف لأنه على "مستوى الصورة الشعرية تكون ثنائية الذات والموضوع متنوعة،وذات وميض مفاجئ،نشطة في تحولاتها المتدفقة دون توقف(20)

جدلية الصحراء والبحر

تنتظم أعمال الكوني جملة من الثنائيات المستوحاة من الفضاء الصحراوي تؤسس عالمه السردي، وتحدد رؤيته لكائناته الروائية. ويتجاوز هذا، الجانب السردي إلى الجانب الجمالي، فتصبغ كتابته تتميز بشعرية خاصة مضمخة بالفضاء الصحراوي، وما فيه من كائنات، وما تحمله اللغة من قيم ورؤى يتاهى فيها التمييز المرجعي، وتتلاشى فيها الحدود الجغرافية والنصية.

ويبدو هذا واضحا في الظاهرة السرمدية المتمثلة في جدلية الحركة والسكون في الفضاء الصحراوي، التي تستدعي ظاهرة أسطورية أخرى هي موضوعة الغرق التي تشترك فيها الصحراء مع البحر، وتأتي في مقدمتها اختفاء أطلنطا القارة الأسطورية بسبب جبروت أهلها وحبهم للهيمنة والعظمة ا، مما أدى إلى غرق قارتهم في المحيط. وتتناص هذه الأسطورة مع أطلنطا الطوارق المدفونة في محيط الرمال العظيم في الصحراء الكبرى، و" واحة الطوارق المفقودة" المدفونة في الرمال. كما تتناص هذه الموضوعة مع حادثة إغراق فرعون في البحر. بالإضافة إلى بعض الأساطير الأخرى التي يمكن إدراجها ضمن الحكي الإتيولوجي le récit

étiologiqueذي المرجعيات المختلفة. وبذلكيتشابه الكثير من الكتاب الذين كتبوا عن الصحراء(21)، في كون كتاباتهم عن هذا الفضاء توحي ضمنيا بصورة لفضاء أخر مشابه للصحراء في قوته وجبروته وأسراره وغموضه. إلى درجة تماهي.وهي نوع من الجمالية المعبرة عن تصور خاص لهذين الفضاءين الفريدين المتشابهين في جبروتهما ورهبتهما، في حركتهما وسكونهما وتناقضاتهما المتنوعة.

وتتقاطع أيقونة الصحراء وأيقونة البحر،في كون كل واحدة منهما تجسد رمزية خاصة متمثلة في اعتبار كل فضاء منهما بوابة للمنفى والعودة إلى الوطن، وثنائية الحياة والموت، والغزو والصمود، والضياع والرحيل، والحرية والعبودية، والاستقرار والعبور، والاتساع والامتداد،وتتمثل الإشارة إلى هذه الثنائية في الرغبة الجامحة في حفر المكان واستنطاق ذاكرته ومعرفة مكنوناته: "لو علم أهل البر أن البحر ليس سوى بر من ماء، لما اغترب أهل البر عن البحر. ولو علم أهل البحر أن البر ليس سوى بحر من رمل، لما اغترب أهل البحر عن البر "(22).

وإذا كانت الصحراء فضاء للموت، فإن البحر من جهته فضاء للضياع، بل غول هادر كما يذكر في تصديره لديوان البر والبحر، نقلا عن فريدريخ نيتشه:

"لم يخطر لي يوما على بال أن أبتني بيت ا(هذا تصوري هن السعادة- عدم امتلاك البيت). ولكن لو وجدت نفسي مضطرا أن أفعل، فسوف أبتنيه، على عادة بعض الرومان، عند أعتاب البحر تماما- لكي أتساور مع هذا الغول العجيب !"(23)

و تتشابه هذه المقاربة لشعرية الفضاء الروائي،مع كتابة ولد أحمدو E.G OuldAhmedouالذي يشير إلى توازي الصحراء والبحر في الرمزية الشعرية واللغوية الموريتانية(24)و كذلك مع الكثير من الأشعار الأفريقية.

صمود الصحراء ولعنة البحر

يعتبر راوي الكوني الفضاء الممتد بين الصحراء والبحر ميدانا لدحر الغزاة عبر التاريخ، منذ أن كانت قبائل "الجرمنت" تغير على جيوش قرطاجة أو الرومان، أو الأزمنة التالية التي كان فيها "يوغرتن" يصد غزوات الرومان ويبيد جيوشهم المتدفقة عبر الصحراء لإجبار

الناس على دفع المكوس،حتى عهد الأتراك والفرنسيين والطليان:"فما أشبه رومان الأمس بأتراك اليوم، وما أشبه....احمد بك القرمانلي، اليوم بزعيم "الجرمنت" الذي لا يضطر أبدا أن يجتاز حدود الصحراء ويبلغ تخوم البحر إلا لردع الغزاة دفاعا عن النفس وعن حرم الصحراء. لأنه يعلم أن أهل السواحل إذا كانوا أشبه الخلق بأسماكهم التي لا تخرج من غمر البحر إلا لتختنق وتهلك خارج البحر،كذلك فإن أهل الصحراء لا يخرجون من صحرائهم إلا ليختنقوا. ولهذا السبب يطاردون الأعداء حتى تخوم المياه. بعدها يولون الأدبار كأنهم يفرون من الوباء. لأن الشطآن التي يحيا الناس على مياهها في استقرار، هي في يقينهم العدو الأكثر عداوة من الغزاة. ولهذا السبب سن أهل البلاد لأنفسهم ناموسا منذ عهود لا يذكرها أحد يقضي بهجران السواحل وتركها لأهل ما وراء البحار."(25)

ولهذا كانوا يصفون مياه البحار بالفاسدة المزكمة للأنوف والمثيرة للصداع والغثيان" برغم أنهم كانوا يهزمون عدوهم دائما. غير أن رائحة البحار التي كانت تحمل وباء مميتا اسمه الاستقرار سرعان ما تهزمهم، فيفرون إلى الصحراء هربا من الموت الذي ينتظرهم على الشطوط، ويفضلون الترحال والانتجاع، ففي هذا الفضاء يتحرروا، ويتنفسوا، ويحيوا لأنهم: كما يقولون عن أنفسهم ملة معجونة من ضياء الشموس الصحراوية الخالدة. تلك الآلهة السماوية التي أبدعت لهم بدفئها يوما يابسة كانت غمرا أيضا بعد أن بددت بحرارتها فيه المياه فصارت لهم وطنا. صارت لهم أرجوحة لا وطنا"(26)

وبالتالي فهم يختلفون عن سكان السواحل ،لأنهم سلالة معجونة من موج البحر، حياتهم مليئة بالضوضاء والهرج، مقابل أهل الصحراء الذين لا يعيشون إلا في السكون لأن في روحهم يسري يقين أن البحر لعنة الصحراء لأنه مطية للغزاة، القادمين من بعيد لخنق الأنفاس وقمع الحريات ونشر الفساد وفرض المكوس : ولكن ملة الصحراء تستطيع أن تحتمل أي جور إلا الجور الذي يؤدي إلى العبودية. ساعتها تستيقظ فيها قوة جنونية استطاعت دائما تنزل الهزائم بأعدائها شذاذ الآفاق الذين لا يقنعهم شيء، ولا يستكفون بشيء، ولا يقف جشعهم عند شيء"(27)

جدلية الحركة والسكون

وتهيمن جدلية الحركة والسكون على الخلاء الصحراوي، فتنتج عنها جدلية أخرى هي جدلية الحياة والموت. وقد تتماهى هاتان الظاهرتان معا حتى تبدوان صورة واحدة. وقد تتحول الحركة سكونا والسكونُ حركةً، دون أن يكون ذلك صفة مطلقة أو نهائية، نظرا لطبيعة هذا العراء غير القارة وغير المنتظمة. وتتحول هذه الظاهرة إلى حركة تتم على مستويين، عمودي وأفقي يشمل كل الفضاء الصحراوي، مما يجعل كل الظواهر الأخرى المكونة لهذا الفضاء، تدور في فلك هذه الظاهرة السرمدية التي تشترك في صنعها العوامل الطبيعة الأخرى. وتثير هذه الظاهرة نوعا من التوتر عند الشعراء والكتاب فتتحول إلى جمالية خاصة بشعرية الصحراء. يصبح زحف الرمال غزوا واجتياحا، يغمر ويبتلع كل ما يجده أمامه، ويسبر الأعماق بعد أن يجلو عنها أسوار الكثبان. وقد تتجه الريح في اتجاهات معاكسة فتغير حركتها، فتتراكم وتتعاكس لتتحول الواحدة عقبة في وجه الثانية،أو تفتح الطريق أمامها لمواصلة زحفها، أو تتوارى في الأعماق في حركة لولبية أو حلزونية. غير أن هذه الظاهرة السرمدية، الناتجة عن حركة الريح المسعورة، تخلف وراءها دوما فضاء جديدا:"الريح تذهب وتدور إلى الشمال. تذهب دائرة دورانا وإلى مداراتها ترجع الريح"(28)

وقد سحرت هذه الظاهرة السرمدية كثيرا من الكتاب والباحثين الأوربيين مثل جـ.دولازG. Deleuze وفـ.غيتاري F. Guattariالذين ربطوا ذلك بحركة البدوي و نمط حياته في الصحراء، إذ يعتقدون أنه استعار نمط حياته من هذه الطبيعة المتقلبة غير القارة بسبب الثنائيات المتضادة التي يتميز بها الفضاء الصحراوي. وفي مقدمة هذه الثنائيات الرياح/ الرمال. فالأول يعتبره أهل الصحراء رسولا لينذر الناس ويحذرهم : "ألا يقال في هذه الأوطان إن الريح رسول لا يهب من جهة الغرب ليلا إلا لخلل في ناموس الدنيا؟ !(29) والثاني باعتبارها أداة بيد هذا الرسول يحملها من مكان إلى آخر في حركة واحدة مشكلة كتلة منسجمة "(30). وبالتالي يبدو هذان العاملان محركان لهدوء الفضاء، يعزفان سيمفونيته، ويصنعان ملحمتهالدراميةعلى المستوى الواقعي، وعنصران سرديان حاسمان في خلق المشاهد والأحداث والتوصيف المشهدي على المستوى النصي:

"نفح القبلي في السهل غبارا قبل أن يبلغ كهوف الحلقة الأولى المطلة على الأهالي فحجبت

عنه الرؤية. واصل الزحف الحلزوني الدائري مع العشية فجاءت بهم مركبة عجاجية عابرة وأنزلتهم في السفوح. هدأت الريح فسمع همهمتهم الغامضة وهم يصعدون وراءه.(31)

الثنائيات المتضادة

تعمل آلة الكوني السردية على تعرية حفريات الفضاء الصحراوي واستنطاقه، ابتداء من توصيف ثنائياته المتضادة:

الصحراء/ الواحة: الأولى رمز الزهد والنقاء ومهبط الكتب السماوية، الثانية رمز الاستقرار في الأرض والعبودية

الجبل/السفح : وهما قيمتان رمزيتان للقمة والحضيض، الأول فضاء الآلهة ولثاني فضاء الأبالسة.

السيول/ العطش : وهما ثنائيتان متناقضتان تدلان على الدمار والهلاك.

البئر/الطمي : ثنائيتا الحياة والموت، البناء والهدم.

الخيمة/ الخباء : تمثلان ثنائية الانفتاح والانغلاق، الاجتماع والاعتزال.الأولى فضاء الزعيم والسلطة ومنتدى اجتماع الأعيان. والثانية خلوة للدراويش والعرافين وكهنة الصحراء والنساك والمتصوفة.

الكهف/المغارة : وهما أيقونتان تدلان في قاموس الصحراء على الاعتزال والوحدة والتحرر من أغلال الحياة، وتمثلان الجانب الغامض والخفي من الفضاء الصحراوي. كما تعكسان وجهة نظر مريديها ورؤيتهم للحياة وفلسفتهم في الوجود، التي عادة ما تكون مخالفة إلى حد التطرف، لآراء مرتادي الفضاءات الأخرى مثل الخيمة والواحة.

كما أن هناك أمكنة ترد أثناء السرد لها دلالات دينية وصوفية، مثل البئر والهاوية والسدرة والبرزخ.

تيبولوجية الفضاء الصحراوي

يمكن أن نختصر هذه التيبولوجية في مجموعة من الثنائيات الدالة في هذا الفضاء،

الفضاء المعنى

الصحراء/الواحة

الصحراء/البحر
الجبل/السفح
البئر/الغمر/السيول/العطش
النخلة/الريح
الخيمة/المغارة
الخباء/الحجاب
الأفق/السراب
الهاوية/البرزخ
الترفاس/أدبني(قبور الأسلاف المستديرة)
التاسيلي/تافتست الحرية/العبودية، الزهد/الرفاهية
حلمة الأرض/لعنة الصحراء
السمو/الحضيض، فضاء الآلهة/فضاء الأبالسة
الحياة/الهلاك
الاستقرار والعبودية/الانطلاق والتحرر
الاجتماع/الاعتزال
التسليم/السر
اللانهائي/التيه
السقوط/الحيرة
الانبعاث والاستمرار/الجذور والامتداد

أحجار مكابرة حاملة لوصايا الأسلاف/ مغر أحمر استعمله فنانو ما قبل التاريخ في رسومهم على حجارة الصحراء الكبرى: دم الصحراء توحي الرسوم التي لونت به بالزهد والاعتزال، في حين توحي الرسوم الأخرى على جسد الصخر بالتوثب توقا للبعث، وشوقا للحياة.

الفضاء والهُوية:

ويتضح أثر الفضاء واضحا في حياة الصحراويين، وتبدو صبغة المكان متجلية في

الجوانب الطقوسية واللغوية والتعبدية، بالإضافة إلى العادات والتقاليد مثل اللباس الذي يتلاءم وطبيعة المحيط: ألبسة فضفاضة التي ترسم شكل الجسد،مثلها مثل القوقعة التي تحدد شكل أجساد الحيوانات الرخوة،على حد تعبير غاستونباشلار . وكذلك اللثام العلامة الأنثروبولوجية الخاصة بالفضاء الطارقي، الذي يورد له المؤلف تفسيرا أسطوريا: فرض عليهم بعد ارتكاب الجد الأول الخطيئة، لتغطية عورة الفم، كما فرض عليهم التنقل الدائم والمستمر في الصحراء.

وينعكس هذا على رؤية الراوي للشخصيات والفضاء أيضا، فيتجسد الفضاء اللانهائي في التنقل الدائم على ظهور البعائر:" ويستمر في التمدد والتباعد طوال السفر: العراء الفسيح القاسي الأبدي يلد في نهايته أفقا لئيما، والأفق يلد، بعد مسير، الأفق. وكلما توغلا في الرحلة ،كلما ازداد الأفق خلودا، وإصرارا على التوالد. في البرزخ الممدود بين العراء والأفق تدفق السراب، ومد لسانا لعوبا لا يتوقف عن الغمز والتغنج والإغواء"(32)

وتتحدد على ذلك الرؤية الأنطولوجية للشخصيات أيضا :

"الإنسان في الصحراء لا بد أن يكون نخلة مشدودة إلى الأرض بالجذور. وإنما ريح القبلي التي تهاجر دائما. الفلاح هو النخلة، والصحراوي هو القبلي الذي لا يتوقف عن السفر" (33)

وبالتالي فإن قسوة الصحراء وما يبدو منها من وجه كالح ومعاناة، ليس في حقيقة الأمر، حسب هذه الرؤية، إلا تنفيذا لوصايا الناموس المفقود"أنهي" الذي يدعو الطوارق إلى الحرية المتمثلة في التنقل الدائم، والابتعاد عن العبودية المتمثلة في الاستقرار في الأرض أكثر من أربعين يوما :

"ومن هنا فأبناء الصحراء ليسوا إلا "ذرية للخلاء. للفناء. ما هي الحرية إن لم تكن فناء؟ ما هي الصحراء إن لم تكن فناء؟ ألم نتفق منذ قليل أن الصحراوي هبة ريح في الهواء، وهباء في الفناء؟ ألم نتفق أن الصحراوي، لهذا السبب، لا يحيا؟(34)

ومن ثمة فإن أي انتهاك لهذا الناموس يعتبر بمثابة الهاوية التي يعتبرها المتصوفة في الدرجة السفلى بين طبقات الحساب، وهي السابعة حسب ترتيب الإمام الغزالي، فيقول:"...وعدد

أبوابها بعدد الأعضاء السبعة، بعضها فوق بعض، الأعلى الجحيم. ثم سقر. ثم لظى. ثم الحطمة.ثم السعير.ثم الجحيم. ثم الهاوية. وقد وردت الهاوية هنا ليس كأداة للقصاص وإنما كرمز صوفي للتطهير وغسل الكفارة(35). ويؤكد الراوي هذا الطرح على لسان إحدى الشخصيات:

"حدود الصحراء هي الهاوية التي يتحدث عنها الفقهاء، لا شيء وراء الصحراء سوى الهاوية (36)".

من معانيها هنا السقوط والانهيار بعد الحنث بالعهد في نزيف الحجر، وميدان صراع ومطاردة بين الودان والإنسان، وفيها يطارد الإنسان ليسفك دمه.في مقابل الصخرة التي يسفك فوقها الدم ويتسرب في الرمل العطشان.

وهنا يمكننا القول أن الفضاء الصحراوي في الكتابة الأدبية عند إبراهيم الكوني أيقونة سردية تحاول إثارة إشكاليات عدة أكثر من أن تجيب عنها، ومن ثمة فهي تتساءل ما إذا كانت الكتابة السردي، المجسدة في أيقونة بمحمولاتها الإيديولوجية والرمزية والوجودية قادرة على ان تشهد على تراث في طريقه إلى الاندثار نتيجة لعوامل تاريخية وسياسية عرفتها الصحراء الكبرى. ومن ثمة فهو فضاء لغوي بامتياز لا علاقة له بالفضاء الواقعي. وتصبح الكتابة السردية عند المؤلف ،وضرورة ميتافيزيقية و حاجة تاريخية. وهو ما يعبر عنه بالرغبة المحمومة في الرواية، للإجابة عن السؤال الأول:" من أنا"، هي التي أوجدت الوجود".

الهوامـــش والمراجـــع

1- Denis Bertrand précis de sémiotique littéraire Édition Nathan HER ,Paris,2000,p.7

2- سعيد بن كراد، السيميائيات السردية، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001، ص..6

3- Jacques Fontanille, Sémiotique et littérature ,Essais de méthode, PUF ,Paris, 1999, p.1

4- عبد الصمد زايد، المكان في الرواية العربية الصورة والدلالة، دار محمد علي للنشر، تونس ط1، 2003، ص.133

5- صلاح صالح، الرواية العربية والصحراء، وزارة الثقافة، دمشق،ط1996،1،ص.35

6- روبرت موزيل، ملحمة "الإنسان بدون خصال" نقلا عن إبراهيم الكوني، وطن الرؤى السماوية، دار التنوير للطباعة والنشر، تاسيلي للإعلام والنشر، ط2، 1992

7- ديوان النثر البري، مصدر سابق، ص.28-31

8-ديوان النثر البري، ص32/31/28

9- إبراهيم الكوني، شهادة ذاتية: الشاة المائة، مداخلة في ملتقى" الأدب والمنفى" مهرجان الدوحة الثقافي جلسة2007/3/27 ، نقلا عن علال سنقوقة، مخيال الصحراء في كتابة إبراهيم الكوني، رسالة دكتورة، جامعة الجزائر،2008، ص.252

10-المجوس، مصدر سابق، ص.220

11- إبراهيم الكوني، صحرائي الكبرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998، ص.7

12-إبراهيم الكوني، وطن الرؤى السماوية، ص.52

13- ربما يشير هنا إلى موسى عليه السلام عندما خاطبه الله "اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى" وكذلك إلى قصة سيدنا إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت،

أول بيت وضع للناس في صحراء الجزيرة العربية.

14- Boutros Hallaq et autres, La poétique de l'espace dans la littérature moderne. P .Sorbonne .N. Ed 1.Paris 2002.p.97

15- ينظر، رحمن غركان، مقومات عمود الشعر، الأسلوبية في النظر والتطبيق،منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق 2004، ص.9. ينظر أيضا الموقع الإلكتروني :
http://www.awu-dam.org

16- صلاح صالح، الرواية العربية والصحراء، ص.24-28 بتصرف

17- Sophie Guermes, La poèsie moderne, Essai sur le lieu caché, , Paris, L'Harmattan, janvier 1999 p.87

18- عبد الله محمد الغذامي، تانيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط1، 1999، ص.161

19-محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري ، المواقف والمخاطبات ، دار الكتب العلمية بيروت، ـ 1997 م، ص .51

20-غاستونباشلار، جماليات المكان،مرجع سابق، ص.19

21- من بينهم:فيكتورهيجو، ولامارتينلوكليزيو، محمد ديب، الطاهر جاووت، مليكة مقدم....

22- إبراهيم الكوني، ديوان البر والبحر، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت ،ليماصول ،ط1، 1999، ص.9

23-نفسه، ص.7

24- El GhassemouldAhmedou ,Eléments pour une symbolique maure ,De la dune au puits ,L'Harmattan, 2001,pp.58-60 et 163

25-نداء ما كان بعيدا، مصدر سابق، ص.43

26-نفسه، ص.44

27-المرجع السابق،نفس.ص

28-- العهد القديم- سفر "الجامعة"، نقلا عن ابراهيم الكوني، المجوس، جـ1، دار التنوير

للطباعة والنشر، تاسيلي، للنشر والإعلام، ط2، 1992، ص..7

29-إبراهيم الكوني، جنوب غرب طروادة، جنوب شرق قرطاجنة، كتاب دبي الثقافية، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع،سبتمبر 2011، ص.66/

30- G. Deleuze et F. Guattari, Mille plateaux, Paris, Minuit, 1980,p.473.

31- المجوس، جـ2 ، مصدر سابق، ص213

32- ديوان النثر البري، ص.7

33-- ديوان النثر البري، ص.12

34-المرجع السابق، ص.17

35-ينظر هامش المؤلف، نزيف الحجر ، ص.53

36- ديوان النثر البري، مصدر سابق، ص.22